غَزْوَةُ تَبُوك

تَارِيخُهَا وَأَسْمَاؤُهَا وَأَسْبَابُهَا :

خرج رسول الله ﷺ لهذه الغزوة فى رجب من العام التاسع الهجرى ، وقد سميت هذه الغزوة بغزوة تبوك نسبة إلى المكان الذى انتهى إليه الجيش الإسلامى ، وهو عين تبوك كما سميت بغزوة العسرة ، وقد ورد هذا الاسم فى القرآن الكريم عندما تحدث عن هذه الغزوة فى سورة التوبة ، قال تعالى: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [التوبة: ١١٧] .

وقد سميت بهذا الاسم لشدة ما لاقى المسلمون فيها من الضنك ، فقد كان الجو شديد الحرارة ، والمسافة بعيدة ، والسفر شاقًا لقلة المؤنة ، وقلة الدواب التى تحمل المجاهدين إلى أرض المعركة وقلة الماء ؛ حتى كانوا ينحرون البعير فيشربون ما فى كرشه من الماء ، وكذلك قلة المال الذى يجهز به الجيش ، كما سميت بالفاضحة ؛ لأنها كشفت عن حقيقة المنافقين ، وفضحت أساليبهم العدائية الماكرة .

وقد ذكر المؤرخون أسباب هذه الغزوة فقالوا: وصلت الأنباء للنبى ﷺ من الأنباط الذين يأتون بالزيت من الشام إلى المدينة ، أن الروم جمعت جموعًا وأجلبت معهم لخم وجذام وغيرهم من مستنصرة العرب وجاءت فى مقدقهم إلى البلقاء ، فأراد النبى ﷺ أن يغزوهم قبل أن يغزوه .

ويرى ابن كثير: أن سبب الغزوة هو استجابة طبيعية لفريضة الجهاد ؛ ولذلك عزم رسول الله ﷺ على قتال الروم ، لأنهم أقرب الناس إليه ، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٣] .

والذى قاله ابن كثير هو الأقرب للصواب ؛ إضافة إلى أن الأمر الذى استقر عليه حكم الجهاد هو قتال المشركين كافة ، بما فيهم أهل الكتاب الذى وقفوا فى طريق الدعوة وظهر تحرشهم بالمسلمين كما روى أهل السير .

ولا يمنع ما ذكره المؤرخون بأن سبب الخروج هو عزم الروم على غزو المسلمين فى

عقر دارهم ، أن يكون هذا حافزًا للخروج إليهم ؛ لأن أصل الخروج كان واردًا[١] .

الأَخْبَارُ العَامَّةُ عَنِ اسْتِعْدَادِ الرُّومَانِ :

وكانت الأنباء تترامى إلى المدينة بإعداد الرومان ، والقيام بغزوة حاسمة ضد المسلمين ، حتى كان الخوف يتسورهم كل حين ، لا يسمعون صوتًا غير معتاد إلا ويظنونه زحف الرومان ، ويظهر ذلك جليًا مما وقع لعمر بن الخطاب ، فقد كان النبى ﷺ آلى من نسائه شهرًا فى هذه السنة (٩ هـ) ، وكان هجرهن واعتزل عنهن فى مشربة له ، ولم يفطن الصحابة إلى حقيقة الأمر فى بدايته ، فظنوا أن النبى ﷺ طلقهن ، فسرى فيهم الهم والحزن والقلق ، يقول عمر بن الخطاب وهو يروي القصة: وَكَانَ لِي صَاحِبٌ مِنْ الأَنْصَارِ إِذَا غِبْتُ أَتَانِي بِالْخَبَرِ وَإِذَا غَابَ كُنْتُ أَنَا آتِيهِ بِالْخَبَرِ وَنَحْنُ نَتَخَوَّفُ مَلِكًا مِنْ مُلُوكِ غَسَّانَ ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَسِيرَ إِلَيْنَا فَقَدْ امْتَلأَتْ صُدُورُنَا مِنْهُ فَإِذَا صَاحِبِي الأَنْصَارِيُّ يَدُقُّ الْبَابَ فَقَالَ افْتَحْ افْتَحْ فَقُلْتُ جَاءَ الْغَسَّانِيُّ فَقَالَ بَلْ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ اعْتَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَزْوَاجَه . . . الحديث[٢] .

وفي لفظ آخر أنه قال: وَكُنَّا تَحَدَّثْنَا أَنَّ غَسَّانَ تُنْعِلُ النِّعَالَ لِغَزْوِنَا فَنَزَلَ صَاحِبِي يَوْمَ نَوْبَتِهِ فَرَجَعَ عِشَاءً فَضَرَبَ بَابِي ضَرْبًا شَدِيدًا وَقَالَ أَنَائِمٌ هُوَ فَفَزِعْتُ فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ وَقَالَ حَدَثَ أَمْرٌ عَظِيمٌ قُلْتُ مَا هُوَ أَجَاءَتْ غَسَّانُ قَالَ لا بَلْ أَعْظَمُ مِنْهُ وَأَطْوَلُ طَلَّقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُ . . . . الحديث[٣] .

وهذا يدل على خطورة الموقف ، الذى يواجهه المسلمون بالنسبة إلى الرومان ، ويزيد ذلك تأكدًا ما فعله المنافقون عندما نقلت إلى المدينة أخبار إعداد الرومان ، فبرغم ما رآه هؤلاء المنافقون من نجاح رسول الله ﷺ فى كل الميادين ، وأنه لا يوجل من سلطان على ظهر الأرض ، بل يذيب كل ما يعترض فى طريقه من عوائق - برغم هذا كله- طفق هؤلاء المنافقون يعملون فى تحقق ما كان يخفونه فى صدورهم ، وما كانوا يتربصونه من الشر بالإسلام وأهله ، ونظرًا إلى قرب تحقق آمالهم أنشأوا وكرة للدس والتآمر فى صورة مسجد ، وهو مسجد الضِّرار ، أسسوه كفرًا وتفريقًا بين المؤمنين وإرصادًا لمن حارب الله

---

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٢٥٢ - ٥٢٧) .

(٢) صحيح البخاري ٢ / ٧٣٠ .

(٣) رواه البخاري ١ / ٣٣٤ .

ورسوله ، وعرضوا على رسول الله ﷺ أن يصلى فيه ، وإنما مرامهم بذلك أن يخضعوا المؤمنين ؛ فلا يفطنوا ما يؤتى به فى هذا المسجد من الدس والمؤامره ضدهم ، ولا يلتفتوا إلى من يرده ويصدر عنه ، فيصير وكرة مأمونة لهؤلاء المنافقين ورفقائهم فى الخارج ، ولكن رسول الله ﷺ أخر الصلاة فيه - إلى قفولة من الغزوة- لشغله بالجهاز ، ففشلوا فى مرامهم وفضحهم الله ؛ حتى قام رسول الله ﷺ بهدم المسجد بعد القفول من الغزو ، بدلاً أن يصلي فيه[١] .

النَّبِيُّ ﷺ يَأْمُرُ أَصْحَابَهُ بِالتَّهَيُّؤِ لِغَزْوِ الرُّومِ:

أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم ، وذلك فى زمان من عسرة الناس ، وشدة من الحرّ ، وجذب من البلاد ، وحين طابت الثمار ، والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذى هم عليه ، وكان رسول الله ﷺ قلما يخرج فى غزوة إلا كنى عنها ، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذى يصمد له ، إلا ما كان من غزوة تبوك ؛ فإنه بينها للناس لبعض الشقة[٢] وشدة الزمان ، وكثرة العدو الذى يصمد له ؛ ليتأهب الناس لذلك أهبته ، فأمر الناس بالجهاز وأخبرهم أنه يريد الروم[٣] .

تَجْهِيزُ جَيْشِ العُسْرَةِ:

ولم يكن من المسلمين أن سمعوا صوت رسول الله ﷺ يدعو إلى قتال الروم إلا وتسابقوا إلى امتثاله ، فقاموا يتجهزون للقتال بسرعة بالغة ، وأخذت القبائل والبطون تهبط إلى المدينة من كل صوب وناحية ، ولم يرض أحد من المسلمين أن يتخلف عن هذه الغزوة - إلا الذين فى قلوبهم مرض وإلا ثلاثة نفر- حتى كان يجئ أهل الحاجة والفاقة يستحملون رسول الله ﷺ ليخرجوا إلى قتال الروم ، فإذا قال لهم: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩٢] .

كما تسابق المسلمون فى إنفاق الأموال وبذل الصدقات ، كان عثمان بن عفان قد جهز عيرًا للشام ، مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها ، ومائتا أوقية ، فتصدق بها ، ثم تصدق

---

(١) الرحيق المختوم ٣٦٨ - ٣٦٩ .

(٢) الشقة: السفر البعيد .

(٣) ابن هشام (٢ / ٢٠٢ - ٢٠٣) .

بمائة بعير بأحلاسها وأقتابها، ثم جاء بألف دينار فنثرها فى حجره ﷺ، فكان رسول الله ﷺ يقبلها ويقول: ما ضَرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم، ثم تصدق وتصدق؛ حتى بلغ مقدار صدقته تسعمائة بعير ومائة فرس سوى النقود.

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائتى أوقيه فضة، وجاء أبو بكر بماله كلّه، ولم يترك لأهله إلا الله رسوله - وكانت أربعة آلاف درهم- وهو أول من جاء بصدقته، وجاء عمر بنصف ماله، وجاء العباس بمال كثير، وجاء عاصم بن عدى بتسعين وسقا من التمر، وتتابع الناس بصدقاتهم قليلها وكثرها، حتى كان منهم من أنفق مُدّا أو مدين لم يكن يستطيع غيرها.

وبعثت النساء ما قدرن عليه من مَسَك [1] ومعاضد وخلاخل وقرط وخواتم.

ولم يمسك أحد يده، ولم يبخل بماله إلا المنافقون: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [التوبة: ٧٩] [2].

الجَيْشُ الإِسْلَامِيُّ يَتَحَرَّكُ إِلَى تَبُوك:

ولما تجهز الجيش الإسلامى استعمل النبى ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة الأنصارى. فلما سار رسول الله ﷺ، تخلف عبدالله بن أُبى ومن كان معه، وتخلف نفر من المسلمين من غير شك ولا ارتياب، فهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، ومروان ابن الربيع، وأبو خيثمة السالمى، وأبو ذر، ثم لحقه أبو حيثمة، وأبو ذر، وشاهدها رسول الله ﷺ فى ثلاثين ألفًا من الناس، والخيل عشرة آلاف فرس [3].

شَأْنُ أَبِي خَيْثَمَةَ:

روى الطبرانى وابن إسحاق والواقدى أن أبا خيثمة رجع، بعد أن سار رسول الله ﷺ بعدة أيام إلى أهله فى يوم حار، فوجد امرأتين له فى عريشين [4] لهما فى بستان له، قد رشقت كل واحدة منهما عريشها، وبردت له ماء فيه، وهيأت له فيه طعامًا، فلما

---

(١) مسك: أساور.
(٢) الرحيق المختوم ٣٧٠ - ٣٧١.
(٣) سيرة الرسول أبو عمار ص ٦١١.
(٤) عريش: خيمة.

دخـل قـام علـى باب العريش فنظر إلى امرأتيه ، وما صنعتا له ، فقال: رسول الله ﷺ فى الـشمس والـريح والحـر ، وأبـو خيـثمة فى ظل بارد وطعام مهيأ وامرأة حسناء فى ماله مقيم؟! .

إمـا هـذا والله بالنَّـصف ، ثـم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما ؛ حتى ألحق برسـول الله ﷺ فهـيأتا لـه زادًا ، ثم قدّم ناصحه فارتحله وخرج في طلب رسول الله حتى أدركـه حـين نـزل بتبوك ، ولما دنا أبو حثيمة من المسلمين قالوا: هذا راكب على الطريق مقبل ، فقال رسول الله ﷺ : «**كن أبا خيثمة**»، فقالوا: يا رسول الله ، هو والله أبو خيثمة ، فلمـا أنـاخ أقبل إلى رسول الله ﷺ ، فقال له رسول الله ﷺ : «**أولى لك يا أبا خيثمة**» [١] . . ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر ، فدعا له ﷺ بخير [٢] .

شَأْنُ أَبِي ذَرٍّ الغِفَارِيِّ :

قـال ابـن إسـحاق: ثـم مـضى رسـول الله ﷺ سـائرًا ، فجعل يتخلف عنه الرجل ، فيقولون: يا رسول الله تخلف فلان ، فيقول: «**دعوه؛ فإن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه**»، حتـى قيل: يا رسول الله ، قد تخلف أبو ذر ، وأبطأ به بعيره ، فقال: «**دعوه؛ فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه**».

وتلـوم [٣] أبـو ذر علـى بعـيره ، فلما أبطأ عليه ، أخذ متاعه فحمله على ظهره ، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشيًا ، ونزل رسول الله ﷺ فى بعض منازله ، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله ، إن هذا الرجل يمشى على الطريق وحده ، فقال رسول الله ﷺ : «**كـن أبا ذر**»، فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله ، والله أبو ذر ، فقال رسول الله ﷺ : «**رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده**».

ومـضى الـزمان وجـاء عـصر عـثمان ، ثـم حدثت بعض الأمور ، وسُيِّر أبو ذر إلى الزبد ، فلما حضره الموت أوصى امرأته وغلامه ، إذا مت فاغسلانى وكفنانى ثم احملانى فـضعانى علـى قارعـة الطـريق ، فـأول ركب يمرون بكم فقولوا: هذا أبو ذر ، فلما مات

---

(١) أولى لك: أجدر بك .

(٢) فقه السيرة للبوطي ٣٠٩ - ٣١٠ .

(٣) تلوم على بعيره: تمهل .

فعلـوا بـه كـذلك ، فطلع ركب فما عملوا به ؛ حتى كادت ركائبهم تطأ سريره ، فإذا ابن مسعود فـى رهـط مـن أهـل الكـوفة ، فقال ما هذا؟ فقيل: جنازة أبى ذر ، فاستهل ابن مسعود يبكى ، فقال: صدق رسول الله ﷺ : «**يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده، فنزل فوليه بنفسه حتى دفنه**»[1] .

شَأْنُ عَلِيّ بنِ أَبِي طَالِبٍ:

وخلف رسول الله ﷺ علىّ بن أبى طالب على أهله ، وأمره بالإقامة فيهم ، فأرجف به المنافقون ، فقالوا: ما خلفه إلا استثقالاً له ، وتخففا منه ، فأخذ علىّ سلاحه ، ثم خرج حتـى أتـى رسول الله ﷺ وهو نازل بالجرف [٢] ، فقال: يا نبى الله زعم المنافقون أنك إنما خلفتنـى أنـك استثقلتنى وتخففت منى ، فقال: كذبوا ، ولكننى خافتك لما تركت ورائى ، فارجـع فاخلفنـى فى أهلى وأهلك ، أفلا ترضى يا علىّ أن تكون منى بمنزلة هارون من موسـى؟ غـير أنـه لا نبـى بعـدى ، فـرجع علـىّ إلى المدينة ، ومضى رسول الله ﷺ على سفره[٣] .

النَّبِيُّ ﷺ وَالمسْلِمُونَ بالحجر:

ومـر الجيش الإسلامى فى طريقه إلى تبوك بالحجر - ديار ثمود الذين جابوا الصخر بالواد ، أى وادى القُرَى- فاستقى الناس من بئرها ، فلما راحوا قال رسول الله ﷺ : «**لا تشربوا من مائهم، ولا تتوضأ منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه للإبل، ولا تأكلوا منه شيئًا، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها ناقة صالح عليه السلام**» وفى الصحيحين عـن ابـن عمر قال: لما مر النبى ﷺ بالحجر قال: «**لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين، ثم قنع رأسه وأسرع بالسير حتى جاز الوادى**».

واشـتدت فـى الطـريق حاجة الجيش إلى الماء ؛ حتى شكوا إلى رسول الله ﷺ ، فدعا الله ، فأرسل الله سحابة فأمطرت ؛ حتى ارتوى الناس ، واحتملوا حاجتهم من الماء ، ولما قـرب مـن تـبوك قـال: «**إنكم ستأتون غدًا إن شاء الله تعالى عين تبوك، وإنكم لن تأتوها؛ حتى يَضحَى النهار، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئًا؛ حتى آتي**» قـال معـاذ: فجئنا وقد سبق إليها

---

(١) السـيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٣٧ - ٥٣٨) .
(٢) ابن هشام ٢ / ٢٠٦ .
(٣) الجرف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة .

رجلان ، والعين تَبِضُّ بشيء من مائها ، فسألهما رسول الله ﷺ: **«هل مسستما من مائها شيئًا»** قالا: نعم ، وقال لهما: ما شاء الله أن يقول ثم غرف من العين حتى اجتمع الوَشَل[(١)] ؛ ثم غسل رسول الله ﷺفيه وجهه ويده ثم أعاده فيها فجرت العين بماء كثير فاستقى الناس ثم قال رسول الله ﷺ: **«يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة، أن ترى ما ها هنا قد ملئ جنانًا»**.

وفي الطريق أو لما بلغ تبوك - على اختلاف الروايات- قال رسول الله ﷺ: **«تهب عليكم الليلة ريح شديدة، فلا يقم أحدكم، فمن كان له بعير فليشد عِقَاله»** فهبت ريح شديدة ، فقام رجل فحمله الريح ؛ حتى ألقته بجبل طيء [(٢)] .

النَّبِيُّ ﷺ يُخْبِرُهُم عَنْ مَكَانِ نَاقَتِه الَّتِي ضَاعَتْ:

قال ابن إسحاق: ثم إن رسول الله ﷺسار حتى إذا كان ببعض الطريق ضلت ناقته ، فخرج أصحابه في طلبها ، وعند رسول الله ﷺرجل من أصحابه ، يُقال له: عمارة بن حزم وكان عقبيًا بدريًا وهو عم بني عمرو بن حزم ، وكان في رحله زيد بن اللُّصيت القينقاعي ، وكان منافقًا .

فقال زيد بن اللُّصيت ، وهو في رحل عُمارة ، وعمارة عند رسول الله ﷺ: أليس محمد يزعم أنه نبي ، ويخبركم عن خبر السماء ، وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال رسول الله ﷺ: وعمارة عنده: **«إن رجلاً قال: هذا محمد يخبركم أنه نبي، ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدري أين ناقته، وإني والله لا أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها، وهي في هذا الوادي، في شعب كذا وكذا قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها»**، فذهبوا ، فجاءوا بها ، فخرج عمارة بن حزم إلى رحله ، فقال: والله لعجب من شيء حدثناه رسول الله ﷺآنفًا عن مقالة قائل أخبره الله عنه بكذا وكذا للذي قال زيد بن اللّصيت ، فقال رجل ممن كان في رحل عمارة ، ولم يحضر رسول الله ﷺ: زيد والله قال هذه المقالة قبل أن تأتي . فأقبل عمارة على زيد يجافي عنقه [(٣)] ويقول: إليَّ عباد الله ، إن في رحلي لداهية ، وما أشعر أخرج أي عدو الله من رحلي ، فلا تُصحبني[(٤)] .

---

(١) الوشل: الماء القليل يتحلب من الجبل .

(٢) الرحيق المختوم ٣٧١ - ٣٧٢ .

(٣) يجافِي عنقه: يطعنه فيه .

(٤) ابن هشام ٢ / ٢٠٩ - ٢١٠ .

وَفَاةُ الصَحَابِيِّ ذِي البِجَادَيْنِ:

قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه: قمت من جوف الليل، وأنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، قال: فرأيت شعلة من نار فى ناحية العسكر، قال: فاتبعتها، أنظر إليها، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وإذا عبد الله ذو البجادين المزنى قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله ﷺ فى حضرته، وأبو بكر وعمر يدليانه إليه، وهو يقول: «**أدنيا إلىَّ أخاكما**» فدلياه إليه، فلما هيأه بشقه قال: «**اللهم إنى أمسيت راضيًا عنه، فارض عنه**» قال (الراوى عن ابن مسعود) قال عبد الله بن مسعود: يا ليتنى كنت صاحب الحفرة.

قال ابن هشام: وإنما سمى ذو البجادين، لأنه كان ينازع إلى الإسلام فيمنعه قومه من ذلك ويضيقون عليه، حتى تركوه فى بجاد، ليس عليه غيره فهرب منهم إلى رسول الله ﷺ فلما كان قريبًا منه، شق بجاده باثنين، فائتزر بواحد، واشتمل بالآخر، ثم أتى رسول الله ﷺ فقيل له: ذو البجادين؛ لذلك[1].

الجَيْشُ الإِسْلَامِيُّ بِتَبُوك:

نزل الجيش الإسلامى بتبوك فعسكر هناك، وهو مستعد للقاء العدو، وأما الرومان وحلفاؤهم فلما سمعوا بزحف رسول الله ﷺ أخذهم الرعب فلم يجترئوا على التقدم واللقاء، بل تفرقوا فى البلاد فى داخل حدودهم فكان لذلك أحسن أثر بالنسبة إلى سمعة المسلمين العسكرية فى داخل الجزيرة وأرجائها النائية، وحصل بذلك المسلمون على مكاسب سياسية كبيرة بما لم يكونوا يحصلون عليها لو وقع هناك اصطدم بين الجيشين.

وجاء إلى النبى ﷺ صاحب أيلة، فصالحه وأعطاه الجزية، وأتاه أهل جرباء، وأذرح، فأعطوه الجزية، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابًا، فهو عندهم، وكتب لصاحبه أيلة: «**بسم الله الرحمن الرحيم، هذه أمنة من الله، ومحمد النبى رسول الله ليُحنَّة بن رؤبة، وأهل أيلة، سفتهم، وسيارهم فى البر والبحر، ولهم ذمة الله، ومحمد النبى، ومن كان معهم من أهل الشام، وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثًا، فإنه لا يحول ماله دون نفسه، وإنه لمن أخذه من**

---

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٤٣ - ٥٤٤).

الناس، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقًا يردونه من بحر أو بر» (١).

النَّبِيُّ ﷺ يُرْسِلُ خَالِدَ بنَ الوَلِيدِ رضى الله عنه إِلَى أكيدر دَومَة:

وبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى أكيدر دومة الجندل فى أربعمائة وعشرين فارسًا، وقال له: «**إنك ستجده يصيد البقر**»، فأتاه خالد، فلما كان من حصنه بمنظر العين، خرجت بقرة، تحك بقرونها باب القصر، فخرج أكيد ليصيدها - وكانت ليلة مقمرة- فتلقاه خالد فى خيله، فأخذه وجاء به إلى رسول الله ﷺ، فحقن دمه، وصالحه على ألفى بعير وثمانمائة رأس وأربعمائة درع وأربعمائة رمح وأقر بإعطاء الجزية فقاضاه مع يحنة على قضية دومة وتبوك وأيلة وتيماء (٢).

الرُّجُوعُ إِلَى المَدِينَةِ:

ورجع الجيش الإسلامى من تبوك منتصرًا، لم ينل كيدًا، وكفى الله المؤمنين القتال، وفى الطريق عند عقبة حاول اثنا عشر رجلاً من المنافقين الفتك بالنبى ﷺ، وذلك أنه حينما كان يمر بتلك العقبة كان معه عمار يقود زمام ناقته، وحذيفة بن اليمان يسوقها، وأخذ الناس ببطن الوادى، فانتهزوا أولئك النافقون هذه الفرصة، بينما رسول الله ﷺ وصاحباه يسيران إذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم، قد غشوه وهم ملتثمون، فبعث حذيفة فضرب وجوه رواحلهم بمحجَن كان معه، فأرعبهم الله، فأسرعوا فى الفرار؛ حتى لحقوا بالقوم، وأخبر رسول الله ﷺ بأسمائهم وبما هموا به، وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ٧٤] ولما لاحت للنبى ﷺ معالم المدينة من بعيد قال: «**هذه طابة، وهذا أحد، جبل يحبنا ونحبه**»، وقال لأصحابه: «**إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم**» قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟ قال: «**وهم بالمدينة، حبسهم العذر**» وتسامع الناس بمقدمه، فخرج النساء والصبيان والولائد يقابلن الجيش بحفاوة بالغة ويقلن:

طلع البدر علينا ... من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

(١) سيرة الرسول أبو عمار ص ٦١٨.
(٢) الرحيق المختوم ٣٧٢ - ٣٧٣.

وكانت عودته ﷺ من تبوك، ودخوله فى المدينة فى رجب سنه ٩ هـ، واستغرقت هذه الغزوة خمسين يومًا، أقام منها عشرين يومًا فى تبوك، والبواقى قضاها فى الطريق جيئة وذهوبًا، وكانت هذه الغزوة آخر غزواته ﷺ [١].

أمر المخلفين: وكانت هذه الغزوة - لظروفها الخاصة بها- اختبارًا شديدًا من الله، امتاز به المؤمنون من غيرهم، كما هى سنته تعالى فى مثل هذه المواطن، حيث يقول: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾[آل عمران: ١٧٩] فقد خرج لهذه الغزوة كل من كان مؤمنًا صادقًا، حتى صار التخلف أمارة على نفاق الرجل، فلم يتخلف إلا من حبسهم العذر، أو الذين كذبوا الله ورسوله من المنافقين، الذين قعدوا بعد أن استأذنوا للقعود كذبًا، أو قعدوا ولم يستأذنوا رأسًا: نعم كان هناك ثلاثة نفر من المؤمنين الصادقين؛ تخلفوا من غير مبرر، وهم الذين أبلاهم الله، ثم تاب عليهم.

ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة بدأ بالمسجد، فصلى فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فأما المنافقون - وهم بضعة وثمانون رجلاً- فجاءوا يعتذرون بأنواع شتى من الأعذار، وطفقوا يحلفون له، فقبل منهم علانيتهم وبايعهم، واستغفرلهم، ووكل سرائرهم إلى الله.

وأما النفر الثلاثة من المؤمنين الصادقين - وهم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية - فاختاروا الصدق، فأمر رسول الله ﷺ الصحابة ألا يكلموا هؤلاء الثلاثة [٢] إلى أن نزلت آيات بقبول توبتهم.

وقد روى كعب بن مالك رضى الله عنه خبره فى ذلك - فى حديث طويل رواه البخارى ومسلم- وجاء فيه قوله: كان من خبرى أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنه فى تلك الغزوة، وطفقت أغدو؛ لكى أتجهز مع المسلمين، فأرجع ولم أقض شيئًا، فأقول فى نفسى: أنا قادر عليه، أى: لن يعيقنى شيء عن سرعة التجهز) فلم يزل يتمادى بى؛ حتى اشتد بالناس الجِدُّ ولم أقض من جهازى شيئًا. ولم يزل بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو[٣] وهممت أن أرتحل فأدركهم، وليتنى فعلت، فلم يقدّر لى

---

(١) الرحيق المختوم ص ٣٧٣، فقه السيرة للبوطي ص ٣١١.

(٢) الرحيق المختوم ٣٧٣ - ٣٧٤.

(٣) تفارط: تقدم الغزاة وسبقوا وفاتوا.

ذلك ، فكنت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم ، أحزننى أنى لا أرى إلا رجلاً مغموسًا بنفاق أو رجلاً ممن عذر الله من الضعفاء . . ولما بلغنى أنه توجه قافلاً حضرنى همّى ، فطفقت أتذكر الكذب ، وأقول: بماذا سأخرج من سخطه غدًا؟! واستعنت على ذلك بكل ذى رأى من أهلى ، ولما قيل: إن رسول الله ﷺ قد أقبل ، زاح عنى الباطل ، وأجمعت أن أصدقه ، فجئته ، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ، ثم قال: «**تعال**» فجئت أمشى ؛ حتى جلست بين يديه ، فقال لى: «**ما خلفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟**» فقلت: بلى ، إنى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرجَ من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلاً ، ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك علىّ ، ولئن حدثتك حديث صدق تجدُ علىّ فيه ، إنى لأرجو فيه عفو الله ، والله ما كان لى من عذر ، والله ما كنت أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك! فقال رسول الله ﷺ : «**أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضى الله فيك**» فقمت ، وثار رجال من بنى سلمة فاتبعونى يؤنبوننى[1] ، فقلت لهم: هل لقى هذا معى أحد؟ قالوا: نعم ، رجلان ، قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك ، فقلت من هما؟ فقالوا: مرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، فذكروا لى رجلين صالحين شهدا بدرًا لى فيها أسوة ، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا ، أى: ثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا ؛ حتى تنكرت لى الأرض ، فما هى بالتى أعرفها فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباى فاستكانا وقعدوا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأقول فى نفسى: هل حرّك شفتيه برد السلام علىّ أم لا ؟ ثم أصلى قريبًا منه أسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى أقبل إلىّ ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى ، وبينما أنا أمشى بسوق المدينة إذا نبطىٌ من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة ، ويقول: من يدلنى على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشترون له حتى إذا جاءنى دفع إلىّ كتاباً من مالك غسان ، فإذا فيه: (**أما بعد** ؛ فإنه **قد بلغنى أن** صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله فى دار هوان ولا مضيعة ، **فالحق** بنا نواسِكَ) فقلت لما قرأتها:

---

(١) يؤنبونني: يعتبون عليه أنه لم يعتذر كالآخرين .

وهـذا أيـضًا مـن الـبلاء ، فتيممت [١] ، بها التنورة فسجرته [٢] ، حتى إذا مضت أربعون لـيلة مـن الخمـسين إذا رسـول رسـول الله ﷺ يأتينى ، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتـزل امرأتك ، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزلها ولا تقربها ، وأرسل إلى صـاحبىّ بمـثل ذلـك ، فقلت لامرأتى: الحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هـذا الأمـر . . . فلبـثت بعـد ذلك عشر ليالٍ ؛ حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا .

فلمـا صـليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله قد ضاقت علىّ نفسى وضاقت علىّ الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع [٣] ، بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر ، فخـررت سـاجدًا ، وعـرفت أنـه قد جاء فرج ، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صـلى صـلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قِبَل صاحبى مبشرون ، ولما جاءنى الـذى سمعـت صـوته يبـشرنى ، نـزعت له ثوبىَّ فكسوته إياهما ببشراه ، والله ما أملك غيرهمـا يومـئذ واستعرت ثوبين فلبستهما ، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ ، فتلقانى الناس فـوجًا فوجًا يهنئونى بالتوبة ، ودخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس ، فقـام إلىّ طلحـة بـن عبيد الله يهرول ؛ حتى صافحنى وهنأنى ، والله ما قام إلىّ رجل من المهاجـرين غـيره ، ولا أنـساها لطلحـة ، قـال كعـب: فلمـا سـلمت على رسول الله ﷺ قـال وهـو يـبرق وجهـه مـن الـسرور: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك عند الله» قـال: قلـت: أمـن عندك يا رسول الله أم من عند الله؟ قال: «لا بل من عند الله» فقلت: يا رسول الله ، إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله ورسوله ، قال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك» ، فقلـت: يا رسول الله إنما نجانى الصدق ، وإن من توبتـى أن لا أحـدث إلا صـدقًا مـا بقـيت ، وأنزل الله تعالى على رسوله: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا

---

(١) تيممت: قصدت .

(٢) سجرته: أحرقته .

(٣) أوفى جبل سلع: صعده وارتفع عليه ، وسلع جبل بالمدينة .

حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٩] (١).

وأما الذين حبسهم العذر فقد قال الله تعالى فيهم: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [التوبة: ٩١ - ٩٢] (٢).

مَسْجِد ضِرَار:

شرع جماعة من المنافقين فى بناء وكرة للدس والتآمر فى صورة مسجد، وهو مسجد الضرار، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ أن يأتى إليهم؛ فيصلى فى مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه علي تقريره، وذكروا أنهم بنوه للضعفاء منهم، وأهل العلة فى الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال: «**إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله**» فلما قفل ﷺ راجعًا من تبوك نزل عليه جبريل بخبر مسجد ضرار، وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين المؤمنين، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [التوبة: ١٠٧ - ١٠٨] فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد من يهدمه قبل مقدمه المدينة (٣).

أَثَرُ هَذِهِ الغَزْوَةِ:

لقد كان لهذه الغزوة أثر عظيم فى سكان شبة الجزيرة العربية؛ لا يقل روعة وجلالاً عن أثر فتح مكة، ولئن كان فتح مكة قد نبه العرب إلى حقيقة كانت غائبة عقولهم، وهى إدراك الحق الذى بُعث به محمد ﷺ فقد كانت غزوة تبوك داعية لهم؛ لأن يسرعوا بالدخول فى هذا الحق الذى دعاهم إليه.

---

(١) فقه السيرة للبوطي ٣١١ - ٣١٢.

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٥١).

(٣) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٥٥ - ٥٥٦).

إن خروج المسلمين بجيش ضخم بلغ تعداد جنوده ثلاثين ألفًا ، فيهم عشرة آلاف فارس أمر لم تعرفه العرب من قبل فى بلادها ، أما وقد استطاع المسلمون تجميع هذا الجيش فهم ولا شك قادرون على أن يفعلوا ما عجز عنه غيرهم ، وتحريك هذا الجيش من المدينة إلى تبوك وهى مسافة هائلة تبلغ قرابة ستمائة ميل ، وفى وقت عسرة وجدب وفى ذلك النظام وتلك الدقة دليل على عظمة القيادة وجزمها وخبرتها العسكرية الواسعة بشئون الحرب ، وعلى حسن تدريب الجنود وعظيم طاعتهم .

ولقد كان فرار الروم وهم البادئون - وهم فى بلادهم ولجوؤهم إلى التحصن داخل البلاد ؛ حتى لا يدركهم المسلمون أعظم دليل على قوة المسلمين التى لا يستطيع أحد الوقوف أمامها ، فهؤلاء الروم هم الذين هزموا الفرس وأخرجوهم من جنوب الجزيرة واستردوا منهم الصليب المقدس ، وأعادوه إلى القدس فى احتفال رائع . . هؤلاء هم الذين فروا وانسحبوا من الميدان عندما واجهوا المسلمين ، أفلا يكون ذلك دليلاً على قوة المسلمين وقدرتهم على مواجهة أى عدو يهددهم . هذه الأمور مجتمعة حركت نفوس سكان شبه الجزيرة نحو الإسلام[1] .

كما لم يبق للمنافقين أن يعاملهم المسلمون بالرفق واللين ، وقد أمر الله بالتشديد عليهم ، حتى نهى عن قبول صدقاتهم ، وعن الصلاة عليهم والاستغفار لهم والقيام على قبورهم ، وأمر بهدم وكرة دسهم وتآمرهم التى بنوها باسم المسجد ، وأنزل فيهم آيات افتضحوا بها افتضاحًا تامًّا [2] .

العِبَرُ وَالعِظَاتُ :

تنطوى غزوة تبوك على العديد من الدروس والعبر والعظات نذكر منها ما يأتى:

١ - أهمية الجهاد بالمال ، فالجهاد ضد الأعداء ليس محصوراً بالخروج للغزو فقط ، وقد استطاع أغنياء الصحابة أن يبرهنوا أن مالهم فى خدمة هذا الدين يدفعونه عن طواعية ورغبة ، وإن تاريخ الأغنياء المسلمين تاريخ مشرف ؛ لأنه تاريخ المال فى يد الرجال ، لا تاريخ الرجال تحت سيطرة المال ، وكما كان الجهاد بالنفس ، فكذلك هو بالمال ، وإن الذين

---

(١) سيرة الرسول أبو عمار ٦٢٤ - ٦٢٥ .

(٢) الرحيق المختوم ص ٣٧٤ .

ربوا على أن يقدموا أنفسهم ، تهون عليهم أموالهم فى سبيل الله تعالى[١] .

٢- إن غزوة تبوك تدريب عنيف للمسلمين ، كان غرض الرسول ﷺ منه إعدادهم لتحمل رسالة حماية حرية نشر الإسلام خارج شبة الجزيرة العربية ، فقد كانت هذه الغزوة آخر غزوات الرسول ﷺ، فلا بد من الاطمئنان إلى كفاءة جنوده قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى ، وقد ساعد هذا التدريب العملى الصحابة فى عصر الخلفاء ، فقاموا بفتح بلاد الشام وبلاد الفرس بقوة إيمانهم وثقتهم بخالقهم وساعدهم على ذلك لياقتهم البدنية العالية ، ومعرفتهم العملية لاستخدام السيوف والرماح وأنواع الأسلحة فى زمانهم[٢] .

٣- قام رسول الله ﷺ بتطبيق مبدأ الشورى فى هذه الغزوة فى بعض النوازل منها:

أ- قَبُولُ مَشُورَةِ عُمَر بنِ الخَطَّابِ فِى تَرْكِ نَحْرِ الإبِلِ حِينَ أَصَابَتِ الجَيْشَ مَجَاعَةٌ:

أصابت جيش العسرة مجاعة أثناء سيرهم إلى تبوك ، فاستأذنوا النبى ﷺ فى نحر إبلهم حتى يسدّوا جوعتهم ، فلما أذن لهم النبى ﷺ فى ذلك جاءه عمر رضى الله عنه فأبدى مشورته فى هذه المسألة ، وهى أن الجند إن فعلوا ذلك نفذت رواحلهم ، وهم أحوج ما يكونون إليها فى هذا الطريق الطويل ، ثم ذكر رضى الله عنه حلاً لهذه المشكلة المعضلة وهو: جمع أزواد القوم ثم الدعاء لهم بالبركة فيها ، فعمل ﷺ بهذه المشورة ؛ حتى صدر القوم عن بقية من هذا الطعام ، بعج أن ملؤوا أوعيتهم منه وأكلوا حتى شبعوا .

ب- قَبُولُ مَشُورَةِ عُمَر رضى الله عنه فِى تَرْكِ اجْتِيَازِ حُدُودِ الشَّامِ وَالعَوْدَةُ إِلَى المَدِينَةِ:

عندما وصل النبى ﷺ إلى منطقة تبوك وجد أن الروم فرّوا خوفًا من جيش المسلمين ، فاستشار أصحابه فى اجتياز حدود الشام فأشار عليه عمر بن الخطاب رضى الله عنه بأن يرجع بالجيش إلى المدينة ، وعلّل رأيه بقوله: إن للروم جموعًا كثيرة ، وليس بها أحد من أهل الإسلام ، ولقد كانت مشورة مباركة ؛ فإن القتال داخل بلاد الروم يعد أمرًا صعبًا ، إذا أنه يتطلب تكتيكًا خاصًا ؛ لأن الحرب فى الصحراء تختلف فى طبيعتها عن الحرب فى المدن ، بالإضافة إلى أن عدد الرومان فى الشام يقرب من مائتين وخمسين ألفًا ، ولا شك فى أن تجمع هذا العدد الكبير فى تحصنه داخل المدن يعرض جيش

---

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٢٨) .

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٧٣) .

المسلمين للخطر .

إن تطبيق الشورى فى حياة الأمة فى كافة شئونها السياسية والعسكرية والاجتماعية . . . إلخ ، منهج تربوى كريم سار عليه الحبيب المصطفى ﷺ في حياته[1] .

المنافقون ومدى خطورتهم على الإسلام:

نال أمر هذه الغزوة من حديث كتاب الله عنها وتعليقه عليها ما لم تنله أى غزوة أخرى ، وإنك لتقرأ عنها سورة التوبة آيات بل صفحات كثيرة ، وتركز معظم هذه الآيات على بيان أهمية الجهاد بالنفس والمال فى سبيل الله ، وإنه الدليل الوحيد على صدق إسلام المسلم ، وأنه فارق بين المؤمنين والمنافقين ، وأنه على المسلمين - إذا كانوا مسلمين- أن لا يركنوا إلى الدعة والراحة ، وأن يستهينوا بما قد يتعرضون له من عذاب وشدة فى سبيل الله تعالى ، كما أطالت فى الحديث عن المنافقين وفضح نواياهم والخفىّ من مقاصدهم .

والدرس الذى فى ذلك هو بيان خطورة أمر النفاق والمنافقين على المسلمين فى كل عصر ، وإيضاح أن الإسلام دعوى لا بد أن يصدّقها الجهاد والتعرض للمحن ؛ حتى يتميز الصادق عن الكاذب ، ويمحّص إيمان المؤمنين عن دجل المنافقين .

ولقد كانت تبوك أعظم مادة لهذا الدرس القرآنى ، إذ كان اختبار المسلمين بها أعظم اختبار إلهى ، كشف اللثام عن النفاق فى المدينة وميّز المنافقين عن المسلمين الصادقين أعظم تمييز ، ثم نزلت الآيات المتوالية فى كتاب الله تعالى تضبطهم بجرائمهم وتعلن للمسلمين سر ائرهم وتحذرهم منهم فى كل زمان ومكان .

ومكمن الخطورة فيهم ، أنهم إنما يحاربون الإسلام باسمه ، ويكيدون له بسلاحه ، يتلاعبون بما فيه من أحكام باسم الإصلاح والمرونة والتمسك بروح التشريع ويستخرجون منه الفتاوى الملفقة المصطنعة ؛ تحقيقًا لأمانتهم أو تقريبًا وأولياء نعمتهم .

والعظة التى ينبغى أن يأخذها المسلمون من هذا الدرس ، هو أن يحذروا عدوّهم الخارجى مرة على أن يحذروا المنافقين فيهم ألف مرة ، وأن يحاربوا أو ما يحاربون ، ما قد

---

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٧٢ - ٥٧٣) .

يشيع بينهم من النفاق[١].

المعْجِزَاتُ فِي هَذِهِ الغَزْوَةِ:

١- الله تعالى يرسل السحاب لدعاء نبيه ﷺ بالسقيا.

٢- خبر ناقة رسول الله ﷺ التى ضلت وأخباره ﷺ عن مكانها.

٣- الأخبار بهبوب ريح شديدة، وتحذير النبى ﷺ منها.

٤- تكثير ماء عين تبوك، والإخبار بما ستكون من خصب.

٥- تكثير الطعام لدعاء النبى ﷺ[٢].

٦- إخبار الرسول ﷺ خالد بن الوليد عندما أرسله إلى أكيدر دومة الجندل قائلاً: إنك ستجده يصيد البقر، فوجده على هذه الحالة[٣].

٧- وفى قوله ﷺ: **«رحم الله أبا ذر، يمشى وحده، ويموت وحده»**، ويبعث وحده، ووقوع هذه الأحداث بعد إخباره ﷺ عنها معجزة أخرى من معجزات النبوة[٤].

* * *

---

(١) فقه السيرة للبوطي ٣١٧ - ٣١٨ باختصار.

(٢) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٤٥ - ٥٤٨).

(٣) الرحيق المختوم ص ٣٧٢.

(٤) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٣٨).

أَهَمُّ الأَحْدَاثِ مَا بَيْنَ غَزْوَةِ تَبُوك وَحِجَّةِ الوداعِ

أَوَّلاً : وَفْدُ ثَقِيفٍ وَإِسْلَامُهُمْ :

لما انصرف رسول الله ﷺ عن الطائف اتبع أثره عروة بن مسعود الثقفى ؛ حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم ، ورجع إلى قومه ، فدعاهم إلى الإسلام فرموه بالنبل ، فأصابه سهم فقتله ثم إنهم رأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب الذين أسلموا ، فأجمعوا على أن يرسلوا رجالاً إلى رسول الله ﷺ ، فقدم عليه ستة منهم فى رمضان بعد رجوعه من تبوك سنة تسع[1] .

فقدم وفدهم ، وفيهم: كنانة بن عبد ياليل ، وهو رأسُهم يومئذ ، وفيهم عثمان بن أبى العاص ، وهو أصغر الوفد[2] .

فلما قدموا على رسول الله ﷺ ضرب عليهم قبة فى ناحية المسجد ؛ لكى يسمعوا القرآن ، ويروا الناس إذا صلوا ، ومكثوا يختلفون إلى رسول الله ﷺ ، وهو يدعوهم إلى الإسلام ؛ حتى سأل رئيسهم أن يكتب لهم رسول الله ﷺ قضية صلح بينه وبين ثقيف ، يأذن لهم فيه الزنا وشرب الخمر وأكل الربا ويترك لهم طاغيتهم اللات ، وأن يعفيهم من الصلاة ، وألا يكسروا أصنامهم بأيديهم ، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبل شيئًا من ذلك ، فخلوا وتشاوروا فلم يجدوا محيصًا عن الاستسلام لرسول الله ﷺ ، فاستسلموا وأسلموا ، واشترطوا أن يتولى رسول الله ﷺ هدم اللات ، وأن ثقيفاً لا يهدمونها بأيديهم أبدًا ، فقبل ذلك ، وكتب لهم كتابًا ، وأمر عليهم عثمان بن أبى العاص الثقيفى ؛ لأنه كان أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلم الدين والقرآن ، وذلك أن الوفد كانوا كل يوم يغدون إلى رسول الله ﷺ ، ويخلفون عثمان بن أبى العاص إلى في رحالهم ، فإذا رجعوا وقالوا بالهاجرة عمد عثمان بن أبي العاص إلى رسول الله ﷺ ، واستقرأه القرآن وسأله عن الدين ، وإذا وجدوه نائماً عمد إلى أبى بكر لنفس الغرض (وكان من أعظم الناس بركة لقومه فى زمن الردة ، فإن ثقيفًا لما عزمت على الردة قال لهم: يا معشر ثقيف ، كنتم آخر الناس إسلامًا ؛ فلا تكونوا أول الناس ردة ، فامتنعوا عن الردة وثبتوا على الإسلام) .

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٧٧) .

(٢) سيرة الرسول أبو عمار ص ٦٣٩ .

ورجع الوفد إلى قومه فكتمهم الحقيقة، وخوفهم بالحرب والقتال وأظهر الحزن والكآبة، وأن رسول الله ﷺ سألهم الإسلام وترك الزنا والخمر والربا وغيرها، وإلا يقاتلهم، فأخذت ثقيفًا نخوة الجاهلية، فمكثوا يومين أو ثلاثة يريدون القتال ثم ألقى الله في قلوبهم الرعب، وقالوا للوفد: ارجعوا إليه فأعطوه ما سأل، وحينئذ أبدى الوفد حقيقة الأمر، وأظهروا ما صالحوا عليه، فأسلمت ثقيف.

وبعث رسول الله ﷺ رجالاً لهدم اللات، أمر عليهم خالد بن الوليد، فقام المغيرة ابن شعبة، فأخذ الكُرزين[1] وقال لأصحابه: والله لأضحكنكم من ثقيف، فضرب بالكرزين[2]، ثم سقط يركض؛ فارتج أهل الطائف بضجَّة واحدة، وقالوا: أبعد الله المغيرة، قتلته الرَّبَّة، وفرحوا حين رأوه ساقطًا، وقالوا: من شاء منكم، فليقرب وليجتهد على هدمها، فوالله لا تُستطاع فوثب المغيرة بن شعب، فقال: قبحكم الله يا معشر ثقيف؛ إنما هي لكاع[3] حجارة ومَدَرَ، فاقبلوا عافية الله واعبدوه ثم ضرب الباب فكسره، ثم علا سورها، وعلا الرجال معه، فما زالوا يهدمونها حجرًا حجرًا؛ حتى سوّوها بالأرض، وجعل صاحب المفتاح يقول: ليغضبن الأساس، فليخسفنّ بهم، فلما سمع ذلك المغيرة، قال لخالد: دعني أحفر أساسها، فحفره حتى أخرجوا تُرابها، وانتزعوا حُليها ولباسها، فبُهتت ثقيف.

وأقبل الوفد حتى دخلوا على رسول الله ﷺ بُحليها وكسوتها، فقسمه رسول الله ﷺ من يومه، وحمد الله على نصرة نبيه وإعزاز دينه[4].

ثانيًا: وَفَاةُ زَعِيمِ المنَافِقِينَ عَبْدِ اللَّهِ بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلُولٍ:

مرض عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين، في ليال بقين من شوال، ومات في ذي القعدة من السنة التاسعة.

قال أسامة بن زيد: دخلت مع رسول الله ﷺ على عبد الله بن أُبي في مرضه نعوده، فقال له النبي ﷺ: «قد كنت أنهاك عن حب اليهود»، فقال عبد الله: فقد أبغضهم سعد بن

---

(١) الرحيق المختوم ٣٨٣ - ٣٨٤.
(٢) الكرزين: الفأس لها حد.
(٣) لكاع: العبد ثم استعمل في الحمق والذم.
(٤) سيرة الرسول أبو عمار ٦٤٠ - ٦٤١..

زرارة فمات .

ولما توفى عبد الله بن أُبى جاءه ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه ، ثم سأله أن يصلى عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلى عليه فقام عمر ، فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ، تصلى عليه؟ وقد نهاك ربك أن تصلى عليه ، فقال رسول الله ﷺ : «إنما أخبرنى الله» فقال: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [التوبة: ٨٠] وسأزيده على سبعين ، قال: إنه منافق ، قال: فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل آية: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [التوبة: ٨٤] [(١)] .

ثالثًا: حجّ أبي بكر رضى الله عنه بالنّاس:

تَأمِيرُ أَبِي بَكرٍ عَلَى الحجِّ:

قال ابن إسحاق: ثم أقام رسول الله ﷺ بقية شهر رمضان ، وشوالاً وذا القعدة ، ثم بعث أبا بكر أميرًا على الحج من سنة تسع ، ليُقيم للمسلمين حجتهم والناس من أهل الشرك على منازلهم من حَجّتهم ، فخرج أبو بكر رضى الله عنه ومن معه من المسلمين .

نُزُولُ بَرَاءَةِ واختِصَاصُ الرَّسُولِ ﷺ عَلِيًّا بِتَأدِيَةِ بَرَاءَةٍ عَنْهُ:

ونزلت براءة فى نقض العهد ما بين رسول الله ﷺ وبين المشركين ، وقال تعالى: ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ ﴾ [التوبة: ١] .

ولما نزلت على رسول الله ﷺ وقد كان بعث أبا بكر الصديق ؛ ليُقيم للناس الحج ، قيل له: يا رسول الله ، وبعثت بها إلى أبى بكر ، فقال: «**لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتى**» ثم دعا علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فقال له: «**أخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذن فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى، أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو له إلى مدته**».

فخرج علىّ على ناقة رسول الله ﷺ العضباء ، حتى أدرك أبا بكر بالطريق ، فلما رآه أبو بكر قال: أأمير أم مأمور؟ فقال: بل مأمور ، ثم مضيا ، فأقام أبو بكر للناس بالحج ،

---

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٨١) .

والعرب إذا ذاك فى تلك السنة على منازلهم من الحج ، التى كانوا عليها فى الجاهلية ، حتى إذا كان يوم النحر ، قام علىّ ، فأذن فى الناس بالذى أمره به رسول الله ﷺ ، وأجَّل الناس أربعة أشهر من يوم أذن فيهم ؛ ليرجع كل قوم إلى مأمنهم أو بلادهم ، ثم لا عهد لمشرك ولا ذمة إلا أحد كان له عند رسول الله ﷺ عهد إلى مدة ، فهو له إلى مدته ، فلم يحج بعد ذلك العام مشرك ، ولم يطف بالبيت عريان ، ثم قَدِما على رسول الله ﷺ .

رَابِعًا : عَامُ الوُفُودِ ٩ هـ :

قال ابن إسحاق: لما فتح رسول الله ﷺ مكة وفرغ من تبوك ، وأسلمت ثقيف وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه[1] .

والوفود التى سردها أهل المغزى يزيد عددها على سبعين وفدًا ، ولا يمكن لنا استقصاءها وليس كبير فائدة فى بسط تفاصيلها ، وإنما نذكر منها إجمالاً ما له روعة وأهمية فى التاريخ ، وليكن على ذكر من القارئ أن وفادة عامة القبائل ، وإن كانت بعد الفتح ولكن هناك قبائل توافدت قبله أيضًا:

وَفْدُ عبد القيس:

كانت لهذه القبيلة وفادتان: الأولى سنة خمس من الهجرة أو قبل ذلك .

كان رجل منهم يقال له مُنقذُ بن حيان يَرِدُ المدينة بالتجارة ، فلما جاء المدينة بتجارته بعد مقدم النبى ﷺ وعلم الإسلام أسلم ، وذهب بكتاب من النبي ﷺ إلى قومه فأسلموا ، فتوافدوا إليه فى شهر حرام فى ثلاثة أو أربعة عشر رجلاً ، وفيها سألوا عن الإيمان وعن الأشربة ، وكان كبيرهم الأشبح العصرى الذى قال فيه رسول الله ﷺ : «**إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة**».

والوفادة الثانية كانت فى سنة الوفود ، وكان عددهم أربعين رجلاً ، وكان فيهم الجارود بن العلاء العبدى ، وكان نصرانيًا فأسلم وحسن إسلامه .

وَفْدُ دَوْس:

كانت وفادة دوس فى أوائل سنة سبع ، ورسول الله ﷺ بخيبر ، فلما أسلم الطفيل بن عمرو الدوسى ، رجع إلي قومه ، فلم يزل يدعوهم إلى الإسلام ، ويبطئون عليه حتى

---

(١) ابن هشام (٢ / ٢٢٩ - ٢٣٠) .

يئس منهم ، فرجع إلى رسول الله ﷺ فطلب منه أن يدعو على دوس ، فقال: «**اللهم اهد دوسًا**» ثم أسلم هؤلاء ، فوفد الطفل بسبعين أو ثمانين بيتًا من قومه إلى المدينة فى أوائل سنة سبع ، ورسول الله ﷺ بخيبر فلحق به .

وَفْدُ صُدَاء:

جاء هذا الوفد عقب انصراف رسول الله ﷺ من الجعرانة سنة ٨ هـ ، وذلك أن رسول الله ﷺ هيأ بعثًا من أربعمائة من المسلمين ، وأمرهم أن يطأوا ناحية من اليمن فيها صُدَاء ، وبيما ذلك البعث معسكر بصدر قناة علم به زياد بن حارثة من الصدائى ؛ فجاء إلى رسول الله ﷺ فقال: جئتك وافدًا على من ورائى ، فاردد الجيش وأنا لك بقومى ، فرد الجيش من صدر قناة ، وجاء الصدائى إلى قومه فرغبهم فى القدوم على رسول الله ﷺ ، فقدم عليه خمسه عشر رجلاً منهم ، وبايعوه على الإسلام ، ثم رجعوا إلى قومهم ، فدعوهم ففشا فيهم الإسلام ، فوافى رسول الله ﷺ منهم مائة رجل فى حجة الوداع .

وَفْدُ عُذْرَة:

قدم هذا الوفد فى صفر سنة ٩ هـ ، وهم اثنا عشر رجلاً منهم حمزة بن النعمان ، قال متكلمهم: حين سئلوا: (من القوم؟): نحن بنو عذرة ، إخوة قُصَىٍّ لأمه ، نحن الذين عضدوا قصيًا ، وأزاحوا من بطن مكة خزاعة وبنى بكر ، لنا قرابات وأرحام ، فرحب بهم النبى ﷺ ، وبشرهم بفتح الشام ونهاهم عن سؤال الكاهنة ، وعن الذبائح التى كانوا يذبحونها ، أسلموا وأقاموا أيامًا ثم رجعوا .

وفد بَلِىّ:

قدم فى ربيع الأول سنة ٩ هـ ، وأسلم وأقام بالمدينة ثلاثًا ، وقد سأل رئيسهم أبو الضَّبَيْب عن الضيافة هل فيها أجر؟ فقال رسول الله ﷺ : «**نعم، وكل معروف صنعته إلى غنى أو فقير فهو صدقة**» ، وسأل عن وقت الضيافة ، فقال: «**ثلاثة أيام**» ، وسأل عن ضالة الغنم ، فقال: «**هى لك أو لأخيك أو للذئب**» ، وسأل عن ضالة البعير ، فقال: «**مالك وله ؟ ، دعه حتى يجده صاحبه**» [1] .

---

(١) الرحيق المختوم ٣٨٠ - ٣٨٣ .

وَفدُ نَجرَان:

وكانت وفادة أهل نجران سنة ٩ هـ، وقوام الوفود ستون رجلاً؛ منهم أربعة وعشرون من الأشراف، فيهم ثلاثة كانت إليهم زعامة أهل نجران، أحدهم: العاقب، كانت إليه الإمارة والحكومة واسمه عبد المسيح، والثانى السيد، كانت تحت إشرافه الأمور الثقافية والسياسية واسمه الأيهم أو شرحبيل، والثالث: الأسقف، وكانت إليه الزعامة الدينية، والقيادة الروحانية واسمه أبو حارثة بن علقمة(١).

فقدموا على النبى ﷺ فدخلوا المسجد عليهم ثياب الحِبَرة، وأردية مكفوفة بالحرير، وفى أيديهم خواتيم الذهب، فقاموا يصلون فى المسجد نحو الشرق، فقال رسول الله ﷺ: «دعوهم» ثم أتوا النبى ﷺ فأعرض عنهم، ولم يكلمهم، فقال لهم عثمان: من أجل زيكم هذا، فانصرفوا يومهم هذا ثم غدوا عليه بزى الرهبان فسلموا عليه، فردّ عليهم ودعاهم إلى الإسلام فأبوا وقالوا: كنا مسلمين قبلكم، فقال النبى ﷺ: «يمنعكم من الإسلام ثلاث: عبادتكم الصليب، وأكلكم لحم الخنزير، وزعمكم أن لله ولدًا») وكثر الجدال والحجاج بينه وبينهم، والنبى يتلو عليهم القرآن ويقرع باطلهم بالحجة، وكان مما قالوه: ما لك تشتم صاحبنا وتقول: «إنه عبد الله»؟، فقال: «أجل، إنه عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول» فغضبوا وقالوا: هل رأيت إنسانًا قط من غير أب؛ فإن كنت صادقًا فأرنا مثله؟ فأنزل الله فى الرد عليهم قوله سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۝٦٠﴾ [آل عمران: ٥٩ - ٦٠]، فكانت حجة دامغة شبه فيها الغريب بما هو أغرب منه، فلما لم تُجد معهم المجادلة بالحكمة والموعظة الحسنة دعاهم إلى المباهلة، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٦١﴾ [آل عمران: ٦١].

وخرج النبى ﷺ ومعه علي والحسن والحسين، وفاطمة: «وقال: وإذا أنا دعوت فأمنوا» فائتمروا فيما بينهم، فخافوا الهلاك لعلمهم أنه نبى حقًا، وأنه ما باهل قوم نبيًا إلا هلكوا، فأبوا أن يلاعنوه وقالوا: احكم علينا بما أحببت، فصالحهم على ألفى حلة،

---

(١) سيرة الرسول أبو عمار ص ٦٥٢.

ألف فى رجب وألف فى صفر ، ولما عزموا على الرجوع إلى بلادهم قالوا للنبى ﷺ: ابعث معنا رجلاً أمينًا ليقبض منهم مال الصلح ، فقال لهم: «**لأبعثنَّ معكم رجلاً أمينًا حق أمين**» فاستشرق له أصحاب رسول الله ﷺ: فقال: «**قم يا أبا عبيدة بن الجراح**» فلما قام قال: «**هذا أمين هذه الأمة**» [١] .

وَفدُ ضِمَامَة بنِ ثَعلَبَة:

عن أنس بن مالك رضى الله عنه: بينما نحن جلوس مع النبى ﷺفى المسجد دخل رجل على جمل فأناخه فى المسجد ثم علقه ، ثم قال لهم: أيكم محمد؟! والنبى ﷺمتكئ بين ظهرانيهم ، فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ ، فقال له الرجل: ابن عبد المطلب ، فقال له النبى ﷺ: «**قد أجبتك**»، فقال الرجل للنبى ﷺ: إنى أسألك فمشدد عليك فى المسألة ؛ فلا تجد علىَّ فى نفسك[٢] . . فقال: «**سل عما بدا لك**» فقال: أسألك بربك ورب من قبلك ، آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: «**اللهم نعم**» قال: أنشدك بالله ، آلله أمرك أن نصلى الصلوات الخمس فى اليوم والليلة؟ قال: «**اللهم نعم**» ، قال: أنشدك بالله ، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: «**اللهم نعم**» ، قال: أنشدك بالله ، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النبى ﷺ: «**اللهم نعم**» فقال الرجل آمنت بما جئت به ، وأنا رسول من ورائى من قومى ، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بنى سعد بن بكر .

وفى رواية عباس: . . . حتى إذا فرغ قال: فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله ﷺوسأؤدى هذه الفرائض وأجتنب ما نهيتنى عنه ثم لا أزيد ولا أنقص .

قال: ثم أنصرف راجعًا ، فقال رسول الله ﷺحين ولى: «**إن يصدق ذو العقيصتين يدخل الجنة**» [٣] ، قال: فأتى إلى بعيره ، فانطلق عقاله ثم خرج ؛ حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه ، فكان أول ما تكلم به أن قال: (بئست اللات والعزى ، قالوا: صه يا ضمام اتق البرص والجذام ، اتق الجنون ، قال: ويلكم إنهما والله لا يضران ولا ينفعان ، إن الله عز وجل بعث رسولاً ، وأنزل عليه كتابًا استنقذكم به ما كنتم فيه ؛ وإنى أشهد أن

---

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٩٤ - ٥٩٥).

(٢) تجد: تحقد وتحمل البغضاء .

(٣) العقيصتين: لأنه فرق شعره فرقتين .

لا إلـه إلا الله وحـده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله ، وإنى قد جئتكم من بعده ، بمـا أمـركم به ، ونهاكم عنه ، قال: فوالله ما أمسى من ذلك اليوم وفى حاضرة رجل ولا امـرأة إلا مـسلماً ، قـال: يقـول ابـن عباس رضى الله عنهما: فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة[1] .

وَفْدُ بَنِى حَنِيفَةَ:

كانـت وفـادتهم سـنة ٩ هــ ، وكانوا سبعة عشر رجلاً فيهم مُسَيلمة الكذاب ، وهو مـسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب بن الحارث من بنى حنيفة ، نزل هذا الوفد فى بيت رجـل مـن الأنـصار ، ثـم جاءوا إلى النبى ﷺ فأسلموا ، واختلفت الروايات فى مسيلمة الكـذاب ، ويظهـر بعـد النظـر فـى جميعها أن مـسيلمة صـدر مـنه الاسـتنكاف والأنفة والاسستكبار والطموح إلى الإمارة ، وأنه لم يحضر مع سائر الوفد إلى رسول الله ﷺ، وأن النبـى ﷺ أراد اسـتئلافه بالإحـسان بالقول والفعل أولاً ؛ فلما رأى أن ذلك لا يجدى فيه نفعًا تفرس فيه الشر .

وكـان النبـى ﷺ قـد رأى قـبل ذلك فى المنام أنه أتى بخزائن الأرض ، فوقع فى يده سـواران مـن ذهب ، فكبرا عليه وأهماه ، فأوحى إليه أن انفخهما فذهبا ، فأوّلهما كذابين يخـرجان مـن بعده ، فلما صدر من مسيلمة ما صدر من الاستنكاف ، وقد كان يقول: إن جعـل لى محمد الأمر من بعده تبعه ، جاءه رسول الله ﷺ وفى يده قطعة من جريد ، ومعه خطيـبه ثابـت بن قيـس بن شَماس ، حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه ، فكلمه ، فقال لـه مسيلمة: إن شئت خلينا بينك وبين الأمر ، ثم جعلته لنا بعدك ، فقال: «**لو سألتنى هذه القطعـة مـا أعطيتكما، ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرتَ ليعقرنك الله، والله إنى لأراك الذى أريتُ فيه ما رأيتُ وهذا ثابت يجيبك عنى**») ثم انصرف .

وأخـيرًا وقـع ما تُفُرّس فيه النبى ﷺ؛ فإن مسيلمة لما رجع إلى اليمامة بقى يفكر فى أمـره ؛ حتـى ادعـى أنـه أشـرك فـى الأمـر مـع النبى ﷺ، فادعى النبوة ، وجعل يسجع الـسجعات ، أحـل لقـومه الخمـر والـزنا ، وهـو مع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ أنه نبى ، وافـتتن به قومه فتبعوه وأصفقوها معه ، حتى تفاقم أمره ، فكان يقال له: رحمان اليمامة ؛

---

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٩٣ - ٥٩٤) .

لعظم قدره فيهم ، وكتب إلى رسول الله ﷺ بكتاب قال فيه: ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] . وعن ابن مسعود: جاء ابن النّوّاحة ، وابن أُثال رسولاً مسيلمة إلى النبى ﷺ، فقال لهما: «أتشهد أنى رسول الله؟» فقالا: نشهد أن مسيلمة رسول الله ، فقال النبى ﷺ : «آمنت بالله ورسوله، لو كنت رسولاً لقتلتكما».

كان ادعاء مسيلمة النبوة سنة عشر ، وقتل فى حرب اليمامة فى عهد أبى بكر الصديق رضى الله عنه فى ربيع الأول سنة ١٢هـ ، قتله وحشى قاتل حمزة ، وأما المتنبئ الثانى ، وهو الأسود العنسى الذى كان باليمن ، فأتاه الوحى فأخبر به أصحابه ، ثم جاء الخبر من اليمن إلى أبى بكر رضى الله عنه .

خَامِسًا : بُعُوثُ الرَّسُولِ لِتَعْلِيمِ مَبَادِئِ الإِسْلَامِ وَتَرْتِيبُ أُمُورِ الإِدَارَةِ وَالمَالِ :

كانت الوفود تسعى إلى المدينة ؛ لتعلن إسلامها وتنضوى تحت سيادة الدولة الإسلامية ، ويتعلموا ما شاء الله أن يتعلموه فى المدينة قبل رجوعهم إلى موطنهم ، وكان ﷺ يرسل معهم من يعلمهم دينهم ، وشرع ﷺ يبعث دعاته فى شتى الجهات ، واهتم بجنوب الجزيرة حيث قبائل اليمن ؛ لتعليمها مبادئ الإسلام وأحكامه .

بَعْثُ خَالِدِ بنِ الوَلِيدِ إِلَى بَنِى الحَارِثِ بنِ كَعْبٍ:

بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فى شهر ربيع الآخر أو جمادى الأولى ، سنة عشر ، إلى بنى الحارث بن كعب بنجران ، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثًا ، فإن استجابوا فاقبل منهم ، وإن لم يفعلوا فقاتلهم .

فخرج خالد حتى قدم عليهم ، فبعث الركبان يضربون فى كل وجه ، ويدعون إلى الإسلام ، ويقولون: أيها الناس ، أسلموا تسلموا ، فأسلم الناس ، ودخلوا فيما دُعوا إليه ، فأقام فيهم خالد يعلّمهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، كما أمره رسول الله ﷺ [1] .

ثم كتب خالد بن الوليد إلى رسوّل الله ﷺ ، يعلمه بإسلامهم وأنه مقيم فيهم ؛ حتى يكتب إليه رسول الله ﷺ ، فجاءه كتاب رسول الله ﷺ يأمره بأن يقبل إلى المدينة ومعه وفد منهم ففعل ، فلما قدموا أمر عليهم قيس بن الحصين ، وبعث إليهم بعد ذلك عمرو ابن حزم ليفقههم فى الدين ، ويعلمهم السنة ، ومعالم الإسلام .

---

(١) ابن هشام ٢ / ٢٥٣ .

وفـى روايـة أنه ﷺ أرسل عليًا من خالد، وعندما وصل إلى قبائل همدان قرأ عليهم كـتاب رسـول الله ﷺ فأسـلمت همـدان جميعًا فكتب عليّ إلى رسول الله ﷺ بإسلامهم؛ فلمـا قـرأ رسـول الله ﷺ الكـتاب خـر ساجدًا، ثم رفع رأسه فقال: «**السلام على همدان، السلام على همدان**»[(١)].

بَعْثُ مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ وَأَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ إِلَى اليَمَنِ:

بعث رسول الله ﷺ معاذ بن جبل الأنصارى - أعلم الصحابة بالحلال والحرام- إلى اليمن قاضيًا ومفقهًا وأميرًا ومصدِّقًا، وجعله على أحد مخلافيها[(٢)]، وهو الأعلى، ولما خـرج معـاذ قاصدًا اليمن خرج معه رسول الله ﷺ يودعه ويوصيه ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشى تحت راحلته، فأوصاه قائلاً له: «**إنك ستأتي قومًا من أهل الكتاب، فإذا جئتهم فـادْعُهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ، فإن هم طاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات فى كل يوم وليلة، فإن هم طاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة؛ تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم طاعوا لك بذلك فإياك وكـرائم أمـوالهم، واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينه وبين الله حجاب**»[(٣)]، وبعث أبا موسى الأشعرى على الكورة السفلى، وقال لهما: «**يسرا ولا تعسرا، وبشرا ولا تنفرا، وتطاوعا ولا تختلفا**» وقـد مكث معاذ باليمن؛ حتى توفى رسول الله ﷺ أما أبو موسى الأشعرى فقدم عليه ﷺ فى حجة الوداع[(٤)].

تَرْتِيبُ أُمُورِ الإِدَارَةِ وَالمَالِ:

إن النظام سمة يتميز بها الإسلام منذ اللحظة الأولى حيث يدخل فى جميع جوانب الإسـلام التـصورية والشعائرية والتعبدية وفى الشرائع الحياتية كلها، فكان ﷺ يضع من يديـر المدينـة فـى حالـة غيبته عنها، وكلما فتح منطقة وضع عليها أميرًا، وكانت الوفود تأتى إليه ﷺ فيعين عليها أميرًا من قبله، ثم يترك لهم من يعلمهم دينهم ويرسل إليهم من يجمـع صـدقاتهم، وكـان يختار عمَّالـه من الصالحين وأولى العلم والدين، ومن المنظور

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٩٦).
(٢) المخلاف: الإقليم.
(٣) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٩٧).
(٤) الرحيق المختوم ص ٣٨٤.

إليهم من العرب وذوى الشخصيات المؤثرة فى قبائلهم .

وكان ﷺ يستوفى الحساب على العمال ، يحاسبهم على المستخرج والمصروف ، وحدد لبعض عماله رواتب وللبعض الآخر قطعة أرض يأخذ خراجها ، وكانت رواتب عماله تتغير بتغير أحوال المعيشة فهى ليست ثابتة ، قال ﷺ : «**من ولى لنا ولاية، ولم يكن له بيت فليتخذ بيتًا ولم تكن له زوجة فليتخذ زوجة، أو لم تكن له دابة فليتخذ دابة**» وهذه هى الحاجات الرئيسية لولى الأمر فى ذلك الوقت منعًا لأخذ الرشوة ، وهذه قاعدة قانونية جاء بها الإسلام قبل أن تثبتها القوانين الوضعية الحديثة فى بنودها ، وهى أن الهدية للحاكم رشوة صريحة [١] .

وهكذا نرى فى تتابع الوفود مدى ما نالت الدعوة الإسلامية من القبول التابع وبسط السيطرة والنفوذ على أنحاء جزيرة العرب وأرجائها ، وأن العرب كانت تنظر إلى المدينة بنظر التقدير والإجلال ؛ حتى لم تكن ترى محيصًا عن الاستسلام أمامها ، فقد صارت المدينة عاصمة لجزيرة العرب ، لا يمكن صرف النظر عنها ، إلا أننا لا يمكن لنا القول بأن الدين قد تمكن من أنفس هؤلاء بأسرهم ؛ لأنه كان وسطهم كثير من الأعراب الجفاة الذين أسلموا تبعاً لسادتهم ، ولم تكن أنفسهم قد خلصت بعد عما تأصل فيها من الميل إلى الغارات ، ولم تكن تعاليم الإسلام قد هذبت أنفسهم تمام التهذيب .

وقد وصف القرآن بعضهم بقوله فى سورة التوبة: ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ ﴾ [التوبة: ٩٧ - ٩٨] .

وأثنى على آخرين منهم فقال: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾ ﴾ [التوبة: ٩٩] .

أما الحاضرون منهم في مكة والمدينة وثقيف وكثير من اليمن والبحرين فقد كان الإسلام فيهم قويًا ، ومنهم كبار الصحابة وسادات المسلمين [٢] .

* * *

(١) السيرة النبوية للصلابي (٢ / ٥٩٨ - ٥٩٩) .

(٢) الرحيق المختوم ٣٨٨ .